

((أشياء لا تموت ..))

موفد الذكريات ، يبقى ، قبل الدوافع العقلية ، هو الحافظ الاول الى كتابة هذا المقال .

قد لا يستطيع الباحث في هذه المجموعة القصصية ان يحدد لاسلوبها الفني ، ولتقنياتها الكتابية ، هوية قصصية واضحة تمام الوضوح . وقد يتعذر عليه بالتالي تصنيفها في مذهب او في منحى جمالي معين . غير ان بنائيتها ، على اختلاف صورها وأشكالها ، لا تخرج عن السياق القصصي العام سواء دفعه الكاتب في طريق اللوحة المشهدة لبيئة زمنية تتداخل فيها الخطوط العرية للناس والأشياء ، أو لهنيئات في الذروة من وجود الناس المأسوي والفرديسي فسي أن معا ، وسواء نسج الكاتب سياق قصصه في تركيبة روائية محكمة الصناعة فريدة الصوغ والتعبير .

كثيرون أحيانا سيجنون في بعض هذه الاقاصيص سهولة في البناء الفني وبساطة في هيكلته ، تبعدها عن مناخات الابداع في هذا النوع من الادب ، وتقربها جدا من ارضية الريبورتاج لا من حيث فندان الرؤيا القصصية المتكاملة فحسب ، بل من حيث النسج الاسلوبي وجماليته الشكلية بصورة أخص . وهذا ما يجعل أفضوة مثل ((مذكرات قصصي)) وغيرها مثلا ، أقرب الى الحديث الحي والمباشر منه الى بناء فني يتصف بمهارات ابداعية ناجمة عن غنسى التركيب وتداخله وفرادته . على ان ما تخسره الظاهرة الفنية فسي اقاصيص محمد عيتاني من هذه الوجهة التبسيطية في هندسة البناء القصصي تعوضها عنه جملة من مبادرات زاخمة في ارسال التكتسة اللادعة حيناً ، أو المثل الشعبي المكتنز حيناً آخر ، وتجاوز لحواجز اللغة وقوابلها المتحجرة في كل حين .

وقد يلاحظ القارئ شيئاً من الافتعال المصطنع في سياق بعض الاقاصيص ، أو بمعنى آخر قد تطلعه بعض الاقاصيص بسياق تنخلله مفاجات غير متوقعة ، أو بسياق مضطرب البناء ، كما في قصة ((العياد الفاربة)) مثلا ، أو في قصة ((لحظة الضوء)) ، كذلك قد لا يرتاح القارئ لتسميته بعض الاشخاص أو الهيئات بأسمائهم الحقيقية مما لا يظل لها مع تطور الاحداث وتغير الأوضاع والظروف ، المدولات والمعاني التي يقرنها بها الكاتب ، فضلا عن كونها تطبع العمل الفني بطابع المباشرة والتسطح الذي لا مبرر له . ومع ذلك يظل يشيع في هذه الاقاصيص نبض الاسلوب الحي على تقطعه ، ويظل الكاتب قادرا على جذب قارئه وشده اليه باللغة المتوترة حيناً وبالكنتة البارعة حيناً آخر .

عوامل عدة تدفعني الى الكتابة عن مجموعة محمد عيتاني القصصية ((أشياء لا تموت)) الصادرة عن دار الفارابي في بيروت مع بداية العام الجاري ١٩٧٤ .

في اعتقادي أولا ان كاتب هذه المجموعة ليس مجهولا في وطنه ، لبنان ، ولا في البلاد العربية الاخرى . فهو في فئة الإبداء التقدميين الذين ظهروا الى الساحة منذ اواسط الخمسينات كمتخرج لبحاث نظرية عقائدية هامة في الفلسفة والنقد الجمالي والفكر بعامة ، ولكثير من الآثار الادبية الابداعية . وهو الى ذلك من كتاب المقالة السياسية ، ومن نقاد الادب وذوي الرأي في الثقافة ، ومن كتاب القصة ، فضلا عن كونه صاحب قلم ملتزم ، ومناضلا في معركة الصراع من أجل التحرر السياسي والاجتماعي منذ حوالي ربع قرن حتى اليوم . ومع ذلك ، وبرغم النشاط المتعدد الوجوه الذي بذله هذا الكاتب على امتداد شبابه كله ، فان ما يقابله به النقد ، وأبحاث التاريخ الادبي الحديث ، يظل دون القيمة الحقيقية التي له ، وبقي مقصرا عن ايفائه حقه على الحركة الادبية والثقافية ، وعلى حركة التحرر العربية منذ مطلع الخمسينات حتى الآن .

وإذا كانت وسائل الاعلام موقوفة في معظمها على حملة الاقلام السلطوية في هذا البلد أو ذاك ، أو اذا كانت طريقة تعامل الاديبي الملتزم ، كمحمد عيتاني مثلا ، مع محيطه وبيئته لا تجعله في مركز الضوء الاعلامي والبروز الاجتماعي فان على النقد الموضوعي مهمة اجتياز حواجز التفتيم المصروبة على آثاره عن عمد أو عن غير عمد ، كما ان على الناقد المسؤول واجب اضاءة الواقع الادبي وبرز مختلف جوانبه لا سيما تلك التي تقع في الظل ، أو يخشى وقوعها فيه ، لتعامل مفرض ، أو لتقصير جلّ اليوم ناقسد مهما يكن عن تجنب الانزلاق في مهاويه .

وعلى كل حال فلست أزعّم لنفسي القدرة النقدية والموضوعية التي تمكنني من اقامة ميزان العدل بين الكاتب وحقه من الشهرة كما ونوعا . ولكن لحمد عيتاني على الادب العربي في لبنان وخارجه ، وعلى ارتال واسعة من المتأدبين والمستشرقين حقا أرجو في اخلاص كلي أن أوفيه بعضا منه ، كما أمل في الوقت عينه ان أسهم في فتح نافذة مضيئة على ادبه ، أو أرسم معالم طريق اليه ، الى واحدة ظلية في هجير هذا الزمن .

غير ان بعض الجهر الذي ما يزال تحت رماد الايام يتناجح فسي

فماذا تقول أقاصيص محمد عيتاني في هذه المجموعة ، وما هو موقف صاحبها من واقع الناس والحياة ؟

ههنا لا اغالي مطلقا اذا صرحت بانني لم اجد نفسي متأثرا ومتجاوبا الى الحد الابدع مع كثير من الآثار الادبية والنصصية مثلما وجدتي في مناخات ((اشياء لا تموت)) . لقد منحنتني أجسواؤها، والتوجهات الاساسية لاحداثها وشخصياتها ، احساسات عميقة بالحياة ، ومشاعر حارة وحميمة بالجوهري الاسمي للوجود الانساني ببساطته وعظمته في آن معا . حسبي دليلا على ذلك ما استشعرته اثناء مطالعتها من اندماج تام بوقائع كاملة في احداثها ، ومن توحد بحالات نموذجية لاشخاصها ، بل حسبي من ذلك فقط هنيئات غير قليلة لم املك فيها الا ان انصهر في دمعسة تفرق عبر الجفون ، او بسمة ابتهاج وامتلاء ، غالبا ما كانت تقفز الى العلانية ضحكة مرحة ، او سخرية مجلجلة .

واذا ما حاولت الآن تجاوز هذا الاحساس الشعوري العام الذي البحث عن قيم ومواقف تجسده في الابعاد المضمونية لاقاصيص هذا الكاتب ، الفيناها تتمحور اصلا حول رؤيا انسانية واقعية الى الحياة والعالم .

وقبل الاشارة اساسا الى مقومات هذه الرؤيا اود هنا ، في صدد الواقعية ، ان ابدد التباسا طالما احاط بمفهوم الواقعية فافسد مفايسها ، وضرب حول طبيعتها في الادب والفن ستارا من الضباب والتويه .

في زعم العديد من القراء ، ومن النقاد ايضا ، ان الواقعية صفة في التعبير وفي الاسلوب الفني للكتابة ، تقوم على رسم الوقائع والمشاهد بصورة دقيقة جدا ، وبشكل لا يخفي من الظواهر ، موضوع المعالجة ، جانبا من الجوانب ، او شاردة من الشوارد ، قبيحها وجميها ، بحيث تغدو الكتابة المسماة واقعية اشبه شيء بالتسجيل التقريري لكل ما يقع في نطاق الموضوع الادبي وفي زاويته على اختلاف الانواع الادبية وفنونها ، لا سيما القصة والرواية .

والحق ان الواقعية ليست في الاصل اتجاها اسلوبيا او مذهبيا يتصل بجمالية الشكل ، بمقدار ما هي في الاساس اتجاه في الدول الخلفي للآثر الادبي ، ومذهب في الموقف الفكري لابعاد المضمون ولنظرة الاديبي الفنان الى الانسان والمجتمع والعالم ، أي للرسالة الضمنية التي يرغب الاديبي القصاص ، او الشاعر ، او المسرحي ، في ان توحي بها الوسائل الفنية التي يتجسد فيها ابداعه وموقفه من حركة الواقع حوله .

وفي مناسبة صدور هذا الكتاب لطلما ردد كثيرون بان محمد عيتاني قصاص واقعي ، وان ادبه القصصي يندرج في سياق الواقعية اللبانية والعربية الخ ... وفي روعهم انه كذلك لان اسلوبه في الكتابة حريص على تصوير الواقع بصراحة وامانة .

والصحيح عندي ان قصص محمد عيتاني واقعية لا لان اسلوبها ولغة ادائها تحرص على نقل الواقع بتفاصيله ، وابراره بدقة او بامانة، بل لان رؤيا صاحبها الى الحياة في حركتها وتناقضاتها وصورورها وأشياها هي رؤيا واقعية ، بمعنى انها تختصن حركة الواقع وتناقضاته ، وتقف في النهاية منه السوقف الذي ينسجم مع صيرورة تلك الحركة ، ومع آفاق التقدم والتطور ، والقيم الانسانية الاصلية ، التي تدفع في اتجاه تلك الصيرورة ، او التي تنكشف عنها مسيرة التاريخ ونتائج حركته وتطوره .

ولربما ذهب بعضنا الى حد القول بان هذه المجموعة القصصية هي ، من حيث الاتجاه الفني تلاسوب وتقنيته ، مجموعة اتجاهات وحرفيات تتراوح بين التقنية الكلاسيكية للبناء الروائي ، وبين التقنيات الحديثة للنص ، مروراً بمختلف السمات الرئيسية للاساليب القصصية المعروفة في الرومنظيفية والواقعية وغيرها .

والغثيثة ، في اعتقادي ، هي ان طريقة محمد عيتاني في الصوغ الاسلوبي لنقصة لا يلتزم اتجاها فنيا واحدا ، وليست تقتصر على الصفات المميزة لهذا الاسلوب او ذلك ، وانما تنطلق الى غاياتها برحابة كلية ودونها حرج في انتهاج شتى الدروب الفنية الماثورة لدى اعلام القصاصين بغير استثناء . فهو يتوسل سياق الحكمة الاصلوية المتدرجة من مقدمة تعريفية الى عقدة تازمية الى خانمة تضع حدا لنهاية السياق ، كما يتوسل مقومات هذا الاسلوب من احياء الشخصيات بالوصف الداخلي والوصف الخارجي ، وتجسيد الحالات النفسية بالحركة والسلوك ، فضلا عن رسم ملامح البيئة الطبيعية والاجتماعية التي يحيا الاشخاص وتجري الاحداث في اطارها وزمنها . كما انه يتوسل في الوقت نفسه عناصر القصص الحديث ومفوماته من عبت بهجري الزمن احيانا ، ومن حوار داخلي وما يلزمه مسن تداعي الذكريات ، وتداخل الاحداث والحالات ، ومن تليب الزمن النفسي ومنطقه الداخلي ومناخه الخاص على منطق الزمن الخارجي وتعاقبه التدرجي التماسك .

لكن هل هذا التداخل الذي نلاحظه عند العيتاني بين عناصر مختلف الاتجاهات والاساليب القصصية هو علامة اكتناز تعبيرية واستقلال بناي متميز ، أم انه لا يعدو ان يكون حصيلة تاثرات متنوعة تتعاضد وتتداخل من غير ان يبلغ درجة التفاعل العميق والولادة النوعية الجديدة ؟

هذا السؤال الاساسي حول هوية الاسلوب القصصي عند العيتاني ليس من السهل الجواب عنه بصورة حاسمة . لان الكاتب نفسه يطالعنا احيانا بما يوحي بالاستقلال والفردية والتوحد ، كما يبدو لنا في احيان كثيرة انه ما يزال رهين المؤثرات الاسلوبية المتنوعة، ولم يستطع ان يبلغ فيها نقطة التحول التي يمكن القول معها باننا امام حصيلة اسلوبية ذات خصائص ناصعة متميزة . ولعلي لا اعدو الصواب اذا قلت انني ، في هذه المسألة ، اميل الى الاعتقاد بان اسلوب محمد العيتاني القصصي يتسع لمختلف العناصر الروائية، واتجاهاتها اتساعا شمه كمي ، بحيث تبدو الصفة العامة لتقنيته القصصية وكأنها استعانة بالمواد الخام لتلك العناصر ، او كأنها معرض لبراعم منها متعددة الالوان ، لم تنصهر في بوتقة ذات نوعية خاصة ، ولم تتلاقح فيما بينها لتولد ابداعا اسلوبيا في اتجاه متكامل محدد .

وبالاجمال فان اقاصيص هذا الكاتب ، من الناحية الجمالية لاسلوب التعبير تتجاوز حدود التجارب الاولية ، لكنها في اعتقادي تظل دون اللحظة التي تسطع فيها المعاناة التعبيرية باللاق التسويع للذرة الخلق .

انني اذ اسمجل بتحفظ هذا الرأي حول الطبيعة الفنية لمجموعة محمد عيتاني القصصية ((اشياء لا تموت)) انتقل الآن الى محاولة التقاط الابعاد المضمونية لهذه الاقاصيص ، انطلاقا من ان الظاهرة الفنية والنصصية لا بد مرتبطة بخلفيات من المفاهيم والمواقف تشكل جزءا لا يتجزأ من القيمة الجمالية للآثار الفنية والادبية ، وتؤلف هنا القاعدة الواقعية لرؤيا الاديبي القصاص ونسيجه الفني في اسلوبية البناء والتعبير .

النموذجية والتجريد ، انطلاقا من وقائع محسوسة معاشة ومن احاسيس وردود فعل خاصة تجاه هذا الوضع او ذلك ، ضمن المنطق الذاتي لعالم القصة والحادثة .

يبقى اخيرا السؤال عن مدى توفيق الكاتب في ايجاد المعادلة الصعبة بين البنائية الجمالية التي يفرضها العمل القصصي كاسلوب فني في الادب ، وبين الابعاد الانسانية التي يفرضها الاتجاه الواقعي لمعانة الكاتب وموقفه الرؤيوي من الحياة . فالى اي مدى استطاع محمد عيتاني ان يحقق اندماج الرؤيا الواقعية بالرؤيا الجمالية ، اي الى اية حدود كانت الظاهرة الفنية اصلا هي الواجهة التي تخفي وراءها الموقف الفكري والنظري للكاتب وتجسده باستيعاب ، بحيث لا يبقى منه الا ما توحى به ايحاء ، ولا تصرح به تصريحاً ، عناصر العمل القصصي من حادثة واشخاص ومشاهد ، وتشهير اليه في النهاية كمغزى من المغازي او كرسالة منسوجة نسجاً قصصياً ظاهراً لمعان ومقاصد خلفية ونظرية مستترة ؟

يبنو لي ان جزءا كبيرا من هذه المعادلة الصعبة بين الرؤيتين القصصية المحسوسة ، والواقعية المتضمنة ، قد تاتي للكاتب ان يحققه على مستويات متفاوتة في الكم والكيف . الا ان ما لاحظته علي سعد وعصام محفوظ في هذا الصدد يظل في رأيي صحيحا من حيث ان ثمة في هذه الاقاصيص لوحات ولقنات ولقطات متناثرة لو تحقق لها الاندماج في بناء واحد متماسك من الرواية « لاكتسب كسل منها حياة ومعاني وابعادا عمق واغنى بكثير مما تحمله اليوم » .

ومع ذلك تبقى اقاصيص محمد عيتاني بعد كل حساب حبيبة الى القلب ، وتبقى مجموعته هذه احدي ركائز القصة الواقعية في ادبنا اللبناني والعربي المعاصر . فليقرأها من يستطيع الى ذلك سبيلا من هواة الاقاصيص ومحترفي الادب ، والباحثين عن النعمة الفنية وابعادها الانسانية في ادبنا الحديث ، فان فيها من المواقف والحالات والصور والمشاهد ما يقني الوجدان الجمالي المعاصر ويهده بينابيع نرة من الحرارة والضوء . كما ان فيها من معالم الرؤيا الحركية الى الواقع ما يدفع الى مزيد من تجاوز الانسان لظروفه ومن تعزيز لقيم ذلك التجاوز ودوافعه .

بيروت

في هذا الضوء يمكن القول ايضا بان واقعية محمد عيتاني ليست الواقعية التي تعكس صورة التناقض والصراع في الحياة بين خير وشر على مستوى الحالات النفسية للاشخاص وسلوكهم الفردي والاجتماعي فحسب ، بل انها الواقعية التي تتجاوز حدود ابراز صورة هذا التناقض ويؤسسه ونعيمه ، عظمتة وحفارته ، سكونه وحركته ، السي موافع لا يقف فيها الكاتب موقف المكتفي برسم وجهي السلب والايجاب في صراع الاضداد والتناقضات ، وانما الواقعية التي تتخطى موقع النقد السكوني هذا الى التزام جانبي الايجاب في هذا الصراع ، والتأكيد على غلبة الجانب المضيء منه بتأكيد على استمرار النمو والتطور ، انطلاقا من توجهه الناس اخيرا ، عفويا واراديا ، في خط الضوء والتجاوز برغم ترسخ الظلم في الارض ، وبرغم جميع ما يكبل الناس من قيود وموانع لا اخلاقية ولا انسانية في العلاقات الاجتماعية وفي المناخات النفسية والايديولوجية السائدة .

ان واقعية محمد عيتاني من هذه الواجهة هي بصورة اجمالية في سياق الواقعية الاشتراكية التي تنطلق من ان الصراع هو في الاساس صراع طبقي ينمكس في سلوك الناس ووعيهم بأشكال شتى وصور مختلفة لكنها في النتيجة حصيلية سيكولوجية واجتماعية وايديولوجية للاستفلال الطبقي ، وهي الواقعية المنتحصة على تفاؤل تاريخي ، الوائقة بقدرة الانسان على تغيير واقعه وبناء عالمه ، عالم الخير والعدالة والحرية .

ان مناخات هذه الاقاصيص لا تسير جميعها بالضرورة في هذا التخطيط بشمكل آلي متوازن . فبعضها يجسد صورة البؤس الفاجع بشمكل مأسوي ، وبعضها يجسد المأساة بشمكل ضاحك ساخر ، وبعضها الاخر يلتقط الصناوين الكبرى لهذا الجانب الاخلاقي السائد او ذلك ، على انها جميعا في النهاية ترسم حركة الحياة وتناقضاتها وصيرورتها الوائقة المتفائلة نحو الحرية والقيم الانسانية السامية .

هذي باجمال كلي هي الابعاد الانسانية التي يوحى بها تسلسل الاحداث الروائية في اقاصيص « اشياء لا نموت » ، وتجسدها مواقف الشخصيات ، كما ترسمها ريشة الكاتب عبر حالات واطواق ولقنات حيانية تبلور الصراع وتكشفه ، محاولة ان ترتفع به الى مرتبة

دار الطليعة تقدم سلسلة من التراث الماركسي

تهدف هذه السلسلة الى المساهمة في استكمال جهد التعريف بالتراث الماركسي - اللينيني ، وكذلك التراث العمالي والاشتراكي - الديموقراطي ، بما فيه تراث « الصف الثاني » من المفكرين الماركسيين والقادة العماليين الذي كان له دور كبير في اغناء نظرية الاشتراكية العلمية وتطويرها .

صدر منها :

- | | |
|--|--|
| 1 - الماركسية والمسألة ستالين | 1 - ماركس - انجلز البيان الشيوعي |
| 2 - الجمهورية العمالية جيمس كونولي | 2 - فردريك انجلز (مع مدخل لقراءة البيان) |
| 3 - الثورة الصينية ليون تروتسكي | 3 - الكسندرا كولونتاى تعاليم الماركسية |
| 4 - الطريق الروسي يوجين فارغا | 4 - لي ذوان تحرر المرأة العاملة |
| 5 - حول نظرية صراع الطبقات جورج بليخانوف | 5 - جيمس كونولي الينينية والثورة الفيتنامية |
| 6 - طريق السلطة كارل كاوتسكي | 6 - غريغوري زينوفيف احاديث المصنع |
| 7 - اشتراكية ام ستالين | 7 - بليخانوف اطروحات حول المسألة القومية والثورة الصينية |
| 8 - الشيوعية والشرق لينين | 8 - محاضرات في فلسفة التاريخ في الحركة النقابية |
| | 9 - الفلاحون وحركة التحرر القومي |
| | 10 - نقد المعارضة العمالية |
| | 11 - الف بء الشيوعية |
| | 12 - المسألة القومية |

دار الطليعة - ص . ب 111813 - بيروت